

مناقشات الثورة والأدب...

عودة الى ((ثورة الاشياء))

بقلم مطاع صفدي

لا ينكر ان مقالات عدد « (الأداب) » الممتاز عن الثورة الثقافية العربية قد اثارت وما تزال تثير ، ردود فعل مختلفة ، اهمها ، ولا ريب تلك التعليقات التي صدرت عن بضعة اقلام تنتمي جميعها الى ارومة فكرية محددة في البيئة الثقافية المصرية ولقد كان آخرها قلم الاستاذ محمود امين العالم ، الذي لم يشأ ان يفوته ركب المساهمة في الجدل العام حول هذا الموضوع ، فانبرى يعرض لوجهة نظره في مفهوم الثورة الثقافية ، والثقافة الثورية ! ثم اخذ يطلق على مقالات العدد الممتاز. وتوقف قليلا حول مقالتي ، واستفزته بعض افكار هذا المقال ، كما استفزت في العدد السابق زميليه عبدالجليل حسن وجمال الشرفاوي، ولست هنا بصدد رد على نقد الاستاذ العالم لمقالتي ، الا كمدخل واثارة لموضوع اعم من هذا الجدل ، اثارته في خاطري ، ولا شك ، اصداء المشكلة التي تناولها العديد من الكتاب حول الثورة الثقافية العربية .

ولابد الآن في مناقشة بعض النقد الموجه الى مقالتي ، والذي كتبه الاستاذ العالم .

اولا ، وبعد ان يوافق الناقد على مدخل المقال ، ويعرض لجانب من خلاصة الفكرة الموجهة للبحث بصورة عريضة تفقد البحث ملامحه الخاصة الدقيقة ، يفاجئنا الناقد باستنتاج ، وهو انني ما دمت قد ثرت على الالفاظ فاني اطالب بحذفها ! ثم يسارع بالموعظة قائلا : « ولكن هل يعني هذا ان نتخلى عن الالفاظ ، والالفاظ كما نعلم هي حاملة المفاهيم والتصورات والقيم ، ام نصارع بالفكر والنضال العملي من اجل الوضوح الفكري .. الخ » والعجب هو ان ما قصده كهدف عام في هذا المقال هو الذي يتبناه الكاتب كموقف يعاكس موقفي فانسائل بنوري ، وكيف يكون الوضوح الفكري ، يا استاذ عالم ، ان اصبحت اللغة الايديولوجية والسياسية اليومية عبارة عن عملة من الالفاظ الفاقدة لكل صلة لها بالممارسة العملية ، وهل يمكن لاية فكرة واضحة ان تعتمد في وضوحها على ترداد الالفاظ ، ام في علاقة الانارة للاشياء التي تعنيها هذه الالفاظ ؟

وكان الاستاذ العالم احسن ان افكار المقال قد تتوجه الى نفسي اهمية المنظومة الفكرية التي تؤلف عقيدة الثورة .. فقال « كيف يتم التواصل الانساني ، والممارسة الثورية بغير منظومة فكرية واضحة » . وانسائل بنوري ايضا ما هي تلك العبارات الواردة في مقالتي والتي توصي بهمد العقائد التي يحرص عليها الناقد ؟ اولم يلحظ سيادته ان واقع هذا المقال من الاساس لا يتوجه الى مضمون الالفاظ بقدر ما يتوجه الى طريقة استعمال هذه الالفاظ ، سواء كانت في منظومة ايديولوجية ، او في خطاب سياسي ، او مقال فكري موجه ؟ فما الفائدة من ترداد الغاموس الماركسي المحبب للثوريين هذه الايام بدون قدرة حقيقية على استيعاب مضمون النقد الماركسي ، واسباب منهجه التحليلي ، التاريخي الاجتماعي ؟

رجائي الى الاستاذ العالم الا يدع ذهنه ينصرف الى عادات الكتابة والنقد المعروفة تماما في اجوائنا نصف المثقفة . انه يجزم حقا،

بينه وبين نفسه ، ان المقال موجه ضد (عقيدته الماركسية) ، وهو ما لم يكن قصد المقال اطلاقا ، ان لم يكن العكس تماما ، وانما هو موجه الى تحويل الماركسية وسواها الى عملة لفظية لتدعيم مواقف وسلوك ، مرتبطة بمصالح سياسية وصراعية معينة .. اقول يسارع الناقد الى جزم جديد قائلا « ان الاستاذ مطاع صفدي يحرقنا من عبودية اللفظ المجرد ليسلما الى فوضوية الشيء غير المحدود عماء الممارسة العشوائية . »

اعتقد ان اول درس تقدمه النظرية الماركسية لدارسيها هو التحرر من المفاهيم المجردة ، والعودة الى اصول الاشياء . ذلك ان مثل هذه العودة لا توفعنا في الفوضوية والممارسة العشوائية ، بل تقدم لنا المقاييس الحقيقية لصحة افكارنا ، وقدرتها على عكس الواقع واثارته وتغييره . ومن يقرأ عبارة الاستاذ العالم ، بحسب انه رجل مثالي من اتباع (كانت) او (هيغل) اللذين تخيفهما دائما فوضى الاشياء ، فيحذفانها هي وعالمها الخارجي (وخاصة هيغل لكي تكون امينين للفلسفة) . واعتقد ان الاستاذ العالم يستطيع ان يكشف بسهولة بالغة ، وهو في الاساس دارس للفلسفة ، ان العنوان الحقيقي للماركسية هو انها منهج في الممارسة ، وليست منظومة من الافكار المجردة التي يهملها مجرد التطابق مع ذاتها على طريقة ديكرات ولاينيفر ، فما الذي يجعل منهجا ثوريا حقيقيا ؟ اليست قدرته على فهم حركة الجدلية في ارض التاريخ والواقع الاجتماعي ؟ فالعودة الى الممارسة لا تفني في التحليل الاخير ، القول بفوضى الاشياء ، ولكن جعل الاشياء مقياسا للأعمال ، وليس العكس . ولا ادري كيف يمكن لماركسي عريق ان تفوته مثل هذه البديهيات في المذاهب الواقعية عامة، والماركسية خاصة ، الا اذا كان لا يعجبه الا ان يرى ما يجب ان يرى فيما يقرأ . الى هنا يمكن الصبر على مناقشة آراء الاستاذ العالم، ولكن عندما يتجرأ باستنتاجاته الخاصة لينتقل من الرد المجرد الى النكته ، فيتبنى فجأة لوتة جورج طرابيشي التي صفق لها بعض زملاء العالم من ماركسيي القاهرة ، ويكتب هكذا « ان ينقلنا (اي الكاتب) من لعبة الفاظ الى لعبة مكعبات شيئية ! ان يتحدث كنا العالم العربي يبدأ من الصفر فكرا ونضالا الخ . » ومشكلة « البدء من الصفر » هذه راحت تستهوي عقولا من مقياس جورج طرابيشي الى مقياس امين العالم، وكادت هكذا ان تصبح اسطورة اعلامية جديدة وتحريما فوقيا جديدا يوجه الى كل من يحاول إعادة نظر علمية ب « منجزاتنا » الفكرية والنضالية . وبالتالي فلتقم اذن القيامة على رأس ذلك « الملحد » الجديد بالانظمة الفكرية والسياسية التي نعم عالمنا العربي المجيد .

وبالرغم من انني لا احب لنفسني ان ادفع عنها تهمة هذا الالحد بما كان قائما حتى النكسة ، وما هو مستمر بعدها كما كان قبلها، الا انني لا ارضى لذاتي كذلك مثل هذا « الموقف الانفعالي » ، الذي عبته على غيري ، وعبرت عنه ضمن مقال واضح نشرته على صفحات هذه المجلة منذ شهور قليلة . ولو تريت الاستاذ العالم قليلا لقرأ بين اسطر مقالتي عبارات كثيرة تتناول استهجان مثل هذا الموقف . فمثلا عبت على بعض الثوريين الديقماغوجيين اخذهم بمنظومات الالفاظ ، والابقاء على فساد الاشياء تحتها ، فاني عبرت بكل وضوح عن الموقف المشابه لدى العاطفيين من الثوريين الذين ينادون الان بشعار

— التثمة على الصفحة — ٦٦ —

عن الثوري الجديد . . والثورة !

بقلم سامي خشبة

استخدم الدكتور حليم بركات في كلمته التي نشرت في عدد يونيو (حزيران) ١٩٧٠ من الآداب والتي يعلق فيها على نقاط خاصة به جاءت في مقال للدكتور احسان عباس وفي مقال آخر لكاتب هذه السطور نشرا في عدد « الثورة الثقافية » ، استخدم في تلك الكلمة بحرية يحسده عليها الثوريون واصاف « الرجعية » ، « الشوفينية » ، « الرجعية المتخفية تحت ستار من التقدمية » ، لكي يصف موقفا اتخذته كاتب هذه السطور عن روايته « ستة ايام » ، « عودة الطائر الى البحر » ، وفي الروايتين - تلخيصا للموقف السابق - يقدم حليم بركات صورة لموقف بطله : في « ستة ايام » كان بطله ممزقا بين صراعه ضد العدو الصهيوني الذي يهدد قرينه بالفناء ان لم تستسلم وبين صراعه ضد القيم الاجتماعية والروحية المتخلفة السائدة في مجتمعه وقرينه عوفي « عودة الطائر الى البحر » قرر بطله - هزيمة حزيران - ان يركز اهتمامه على تلك القيم المتخلفة التي كانت فيما يراه سببا للهزيمة ، خاصة وان كل الحركات التي تدعى الثورية في الوطن العربي - كما يعتقد - انما تكرر تلك القيم نفسها وتفكر من ضمن اطرافها ، وعلى هذا فقد حمل هو عبء مواجهتها ، اي انه قد حمل عبء « تحضيرنا » للمعركة القادمة ، بعد ان يهزم قيمنا المتخلفة .

وحليم بركات يقدم في كلمته تلك تصوره عن « الثوري الجديد » وهو بلا شك يعتقد انه هو نفسه « ثوري جديد » ، والحق انني لم اكن اعرف عن حليم بركات اكثر من انه مؤلف هاتين الروايتين وانه يكتب دراسات بدأ يهتم فيها مؤخرا بقضية فلسطين والثورة العربية . والحق ايضا ان كلمته تلك اغرتني بمحاولة التعرف اكثر على عقلية هذا الذي يتحدث عن الرجعية والسلبية الشوفينية فيما هو يعتقد فيما عبر عنه من خلال بطل روايته « عودة الطائر » من ان بلادنا سفينة تبحر بلا هدف طول تاريخها فوق بحار الرعب والجهل والخرافة ، وبينما هو - اي المؤلف نفسه - يبني عقلية بطله وعالمه الروحي الداخلي من شتات عناصر ثقافية متناثرة تنتمي الى ثقافات غربية كلها ، وليس فيها اثر - اي اثر - لثقافته القومية ، الا في اشارة عابرة يخطئ فيها بتاريخ بلاده حين يقول ان تيمورلنك قد فتح بغداد وحرق مكنباتها (ص ٢١ من عودة الطائر) .

في كلمة الدكتور حليم بركات تلك نقرا سطورا تقول :

« ان الايجابيين الذين يطمسون عيوبنا ويتجاهلوننا ، وينسبون الينا فضائل لا نملكها ، ويتعاونون مع مؤسساتنا الهزيلة او يسايروننا هم السلبيون الحقيقيون ، لانهم بذلك يخدرون ويضللون ويعرقلون بدء حياة جديدة هي غير هذه الحياة الهزيلة التي نحيها . ان الثوري لا يتجاهل الواقع ويلج على تجاوزه » .

والحق ان حليم بركات لا يطمس عيوبنا وانما هو لا يرى فينا غير العيوب ، وهو لا ينسب الينا فضائل لا نملكها لانه لا يرى فينا فضيلة ما (وهذا ما سوف نراه من قراءة مستأنية لدراسة نظرية له نشرها في مجلة مواقف) . والدكتور حليم بركات ايضا لا يعتقد بالطبع انه يتعاون مع اي مؤسسة هزيلة ، ذلك انه « يعمل » في الجامعة الاميركية في بيروت . وهذه الجامعة الاميركية مؤسسة غير هزيلة بالطبع . وكيف تكون كذلك ومجلس امانها يضم (كما يمكنك ان تعرف عن دليل الجامعة)

● هوارديباچ (نائب رئيس المجلس) نائب رئيس ومدير شركة ستاندرد اويل اوف نيوجرسي ، احدى الشركات المساهمة الرئيسية في استغلال بترول الشرق الاوسط .

● الفرد هوازار (امين صندوق المجلس) نائب الرئيس التنفيذي

شركة بنك الكيمياء في نيويورك .

● دافيد دودج (عضو المجلس) احد كبار موظفي شركة التابلاين في بيروت .

● الفرد هاوول (عضو المجلس) نائب رئيس « ذي فيرسنت ناشونال سيتي بنك » احد اضخم ثلاثة بنوك اميركية ساهم في ملكية اكبر شركات البترول والنقل في الشرق الاوسط . وهذه الجامعة نفسها التي قال عنها ويطام سكراتون (الممثل الشخصي للرئيس الاميركي ريتشارد نيكسون) انها « استثمار طيب ويجب ان نتمعه » وقال عنها « لولا وجود الجامعة الاميركية في بيروت لازداد التوتر في منطقة الشرق الاوسط » .

هذه مؤسسة غير هزيلة لا يرى الدكتور حليم بركات غبارا في التعاون معها او العمل بها والانتشار في كل مكان باسمها ، بما في ذلك مخيمات النازحين الفلسطينيين العرب مثلما نرى في دراسته « الطريقة » عن « النزوح والقتلاع » .

اما المؤسسات « الهزيلة » الاخرى : الدين والدولة والعائلة ومؤسسات التربية والاجزاب شبه الثورية والانظمة الانقلابية (كما يسميها) فهو قد قطع كل علاقة له بها . . او انه لم يكن له بها اية علاقة . . ذلك لانه ثوري جديد (!) او انه ممن يحملون « الفكر الثوري الجديد الذي بدأ يتبلور بعد حرب الخامس من حزيران » اذا اخذناه بكلامه . فما هو تصوره الفلسفي عن ذلك الثوري الجديد - بكلامه ايضا ؟ .

للدكتور بركات كما قلت « دراسات » نظرية ، فهو استاذ علم الاجتماع في الجامعة الاميركية ، وبعض هذه الدراسات ينشرها في مجلة « موافق » . وفي العدد السادس من هذه المجلة دراسة له عنوانها « الاغتراب والثورة في الحياة العربية » ، يقول فيه :

« . . وفي رأيي ان التمرد الثوري الاصيل مبدع يتجاوز الاشكال والانماط الموروثة ويرفض ان يقوّل ضمن اطارات ضيقة . انه تلقائي وعفوي ومغامر يتجاوز الحدود المألوفة . انه مكتشف دائم » . (ص ٣٦) . هكذا اذن يصبح الثوري تلقائيا وعفويا ومغامرا ، بينما نحن نظن انه اذا كانت الثورة هي علم تغيير المجتمع ، فلا بد للثوري ان يكون عالما بالمجتمع الذي يريد ان يغيره ، قدبرا على « التنظيم » لكي يستطيع ان ينظم القوى الثورية في المجتمع حتى تكون قادرة على مواجهة الدولة الرجعية المنظمة ، قدبرا على التخطيط للعمل الثوري حتى يجنب الثورة ان تدفع ثمن حركات « عفوية » لا تكون نتيجتها الا اجهاض الثورة وبعث اليأس في قلوب جماهيرها واناثة الفرصة لاعداؤها لتصفية مراكزها ، قدبرا على التخطيط للمستقبل حتى يضمن للثورة ان تسير وفق « نسق » معين بضمن للمجتمع ان يبدأ ثورته عن الاساس ، وان يتدافع المد الثوري باحكام حتى يكتسح كل ما هو عفن في معدلات متساوية في جميع المجالات . اما الدكتور حليم بركات استاذ « علم الاجتماع » في الجامعة الاميركية فهو يقول لنا ان الثوري تلقائي وعفوي ومغامر : لا يرفض التراث فقط ، ولكنه لا يؤمن بشيء لانه تلقائي يخضع للخطة المباشرة ، وهو لا يتصرف وفقا لفهم علمي للواقع ولا يهدف الى هدف واقعي سبق له دراسة امكانية الوصول اليه في ظروف محددة ومن خلال طاقات محددة ، لا يفعل شيئا عن ذلك لانه عفوي ؟ وهو لا يرتبط حقا بقضية ما ، بل انه قد يضرب لحساب نفسه الانانية الضيقة وقد يؤجر طاقته لحساب آخرين اذا لم يجد « خناقة » ما يشترك فيها ، يفعل ذلك لانه مغامر . . ومع ذلك يعتقد الدكتور حليم بركات انه « ثوري جديد » .

اذا كان هذا هو فهم حليم بركات للثوري ، فكيف فهمه للثورة ؟

يقول الدكتور في نفس الدراسة :

« ان الانسحاب حل مؤقت . وفي التاريخ الحديث ادلة على

- التثمة على الصفحة ٦٨ -

الارهاب الفكري سلاح مفلول

بقلم جورج طرابيشي

في العدد الخاص الذي كرسته « الآداب » لمسألة « الثورة الثقافية العربية » نشرنا مقالاً تحت عنوان « اساطير المثقفين » حاولنا فيه، بالفكر المتاح لنا ، أن نرض هلوسات نمط معين من المثقفين العرب، وعلى وجه التحديد هلوساتهم أو عملقاتهم الايديولوجية .
ولقد خيل الينا آنذاك ان السمة الاولى لهؤلاء المثقفين هي امتهان صناعة الاساطير وترويجها .
ويبدو الان اننا كنا في ظلنا هذا مخطئين .
فقد كان ينبغي ان نضيف بانهم امتهنوا أيضا صناعة الارهاب الفكري .

وقد انتبهنا الى هذا التخصيص بعد ان طالعنا ما نشره احد اولئك المثقفين ، الاستاذ مطاع صفدي ، في عدد تموز ١٩٧٠ من « الآداب » ، دفاعا عن الحق « غير القابل للاستلاب » في الهلوسات الايديولوجية .

والحقيقة أن اللوم في ذلك التخصيص يقع علينا وليس على أحد سوانا .

فقد كان ينبغي ان ندرك من الوهلة الاولى ، ودونما حاجة الى دليل جديد كذاك الذي قدمه الكاتب في عدد تموز من « الآداب » ، ان التهمة الطبيعية ، المنطقية ، بل الحتمية ، لامتهان صناعة الاساطير هي امتهان صناعة الارهاب الفكري .

فالاساطير ، بحكم أنها اساطير ، عرضة على الدوام لان يفتضح أمرها . وكذلك شأن مروجها .

وعندما تبيي الحيلة الساحر المشعوذ ويسقط الامر من يده ، يصبح امتام أمرين لا ثالث لهما : اما ان يعدل عن السحروالشفوذة، واما أن يلجأ الى ارهاب القوة العارضة ليفرض على الناس الاستمرار في احترام الاعيابه وخزعلاته .

ولهذا يمكن القول بلا حرج ان في جلد كل ساحر ارهابيا ، وان في كل اسطورة بذرة عنف ، وان انتقال هذا العنف من حالسة الكمبون الى حالة السفور مشروط فقط بقبول الناس وتصديقهم ، وان آلية الارهاب لا تشرع بالتحرك العلني الا في اللحظة التي يتداعى فيها قبول الناس وتصديقهم الى درجة لا يعود معها مفر من العنف العاري الذي لا تمويه اي ايديولوجيا .

ولا جديد في هذا اصلا . فالحكومات الدكتاتورية على مر التاريخ لم تكن الا حكومات افتضح امر اساطيرها التبريرية او اعوزتها الحجة وانفض من حولها قبول الناس وتصديقهم ، فلجأت الى لغة الارهاب السافر .

وبمثل هذه اللغة آثر الاستاذ مطاع صفدي ان يرد علينا . وهو باختياره هذا لا يربنا - لانه لا يملك لحسن الحظ آلة عنف الدولة - وانما يؤكد ان هناك فعلا اساطير قد افتضح شأنها ، وان هذه الاساطير ما عادت تستطيع ان تمارس دورها المنوط بهما بقوتها الذاتية ، وان تجارتها قد بارت وصاد لزاما على اصحابها ان يشهروا الهراوات كي يقوها قيد التداول .

ونظرا الى ان الكاتب لا يملك آلة عنف الدولة كما ذكرنا ، فانه مضطر بحكم الضرورة الى اللجوء الى ارهاب من نوع آخر .

والارهاب الفكري مطية ذلول لكل مفكر (١) لا يملك من قوة الحجة ما يفنيه عن هراوة بسمارك ، ولا يملك من قوة بسمارك وحيلته ما يفنيه عن قوة الحجة .

ولنفكك الآن آلية هذا الارهاب لدى الكاتب .

١ - ربما كان ينبغي ان نضع هذه الكلمة بين هلالين مزدوجين .

ان نقطة الانطلاق ونقطة الوصول معا عند الكاتب هما التشكيك في وحدويتنا ، والتشكيك في وحدوية كل من يجرؤ على التعرض بالنقد الى الكاتب والى كل مفكر من مدرسته .

وحدوية الكاتب هذه قابلة تماما لان توصف بانها « وحدوية بابوية » .

فمعتقدات الكنيسة الكاثوليكية تنص على ان البابا ، لمجرد انه بابا ، معصوم عن الخطأ .

ولسان حال الكاتب يقول : انني وحدوي ، ولمجرد انني وحدوي ، فأنا معصوم عن الخطأ .

ومعادلة الكاتب في « الوحدوية البابوية » لا تتوقف عند هذه الحدود . بل تراه يستأنفها ليكتشف مجاهيل جديدة . ومن قبيل ذلك محتاجه هذه :

ما دمت معصوما عن الخطأ لانني وحدوي ، فان كل نقد يوجه اليّ لا بد بالضرورة ان يكون صادرا عن انسان غير وحدوي .

وقد يبدو مثل هذا الكلام غير قابل للتصديق . ولكن لنستمع الى الكاتب وهو يقول بالحرف الواحد : « لا بد ان نتوقف قليلا على ما كتبه جورج طرابيشي وهاجم المثقفين العرب (٢) ، وانتقى منهم ثلاثة ، هم مطاع صفدي ونديم البيطار وعصمت سيف الدولة . واول ما يطالعنا في هذا الصدد هذا التساؤل : ولماذا هذا الانتقاد ؟ لأن هؤلاء الكتاب تجمهم الدعوة الى الوحدة العربية ؟ لأن النزعة القومية ما زالت لها اهميتها لديهم التي جانب جميع ما ينقل وترجم عن مختبرات الماركسية ؟ » .

ولننظر ايضا الى هذا الاسلوب في دفاع الكاتب عن الدكتور نديم البيطار : « مسكين يا دكتور بيطار ! لقد كان ذنبك عمليا انك حاولت ان تعطي علما اجتماعيا كاملا للثورة ، وذنبك سياسيا ، وهذا هو الاخطر لدى بعض الماركسيين ، انك وحدوي ، وانك قد اعلنت في مقال اخير لك انه لا بد من الارتباط بالثورة الناصرية الوحدوية (٣) » .

نحن اذن امام ارهاب فكري عار ، يسمي نفسه بنفسه بكل صفاقة وبلا وساطة .

ونحن لسنا على استعداد للدخول في نقاش مع الكاتب قبيل ان نضع حدا لهذا الارهاب ، بله هذا الابتزاز الفكري .

اننا نرفض الارهاب في الفكر كما نرفض البابوية فسي مسألتي الوحدة والاشتراكية .

اننا نرفض محاكم التفتيش ومنطق محاكم التفتيش .

ونرفض بعد هذا وقبل هذا الوصاية على الوحدة وعلى فكر الوحدة .

وبوجه خاص نرفض ان تكون الصفة الوحدوية في الفكر كما في السياسة احتكارا مسبقا لفتة دون غيرها .

ويقينا الراسخ ان الوحدة العربية لن تتحقق ، فسي المستوى الراهن من تطور الثورة العربية ، الا على انقاص الهلوسات الايديولوجية لبعض المفكرين ، بله على الجثث الفكرية لبعض المثقفين العرب .

ولا يغير من واقع الامور شيئا ادعاء هذا النفر من المثقفين بانهم وحدويون .

ففي المرحلة الراهنة من تطور الثورة العربية لا يكتسب المرء صفة الوحدوية لمجرد دعوته الى الوحدة العربية .

ونحن لا نشك في ان الكاتب يحلم بالوحدة العربية ويدعو اليها .

- التتمة على الصفحة ٦٩ -

٢ - ان الكاتب يستعدي علينا ههنا المثقفين العرب جميعا . ولكننا نذكره باننا لم نهاجم المثقفين العرب بلا حصر ، بل هاجمنا نمطا معيناً منهم .

٣ - ان خلافا الفكري الجذري مع الدكتور البيطار لا يمتنعنا من ان نستنكر باسمه مثل هذا الدفاع الاستعمائي عنه .

عن الامانة والخداع في الثقافة . .

بقلم عبدالجليل حسن

اسوا ما يكون الكاتب حين لا يكون امينا مع نفسه ومع الاخرين. ومع تقديري الشديد لشخص الاستاذ مطاع صفدي ، ولطموحه في ان يكون واحدا من المفكرين العرب ، ودأبه على كتابة المقالات وتأليف الكتب خدمة للثقافة العربية المتفاعلة مع التيارات الثقافية العالمية الجديدة . . الا ان من حق قرائه عليه ان يطلبوا منه ان يكون امينا معهم ومع نفسه اولا ، وان يتفهم هو نفسه نانيا وقبل اي شيء آخر ما يريد ان يحدثهم عنه من « افكار وتيارات ثقافية عالية » قبل ان يزعم لهم انه يفتح امامهم « نوافذ الثقافة العالمية التي لها كل يوم محاولة جديدة لفهم قضايا الانسان والمجتمع » ، والا كان مخادعا لنفسه قبل ان يخدع قراءه .

وانا ازعم - وارجو مخلصا ان آكون مخطئا في زعمي - انه ليس امينا مع نفسه ، ولا مع قرائه ، ولا مع ما يقرأه ايضا ويتصدى للكتابة عنه . ولكن صرحاء في مواجهة انفسنا وبعضنا البعض باخطائنا - وما اكثرها - ولنسم الامور باسمائها ونبتعد عن المداراة ، فلاخطاء لا تعيب الانسان ما دام يجهد لتفاديها ويفكر فيها على الاقل اذا نبه اليها ، اما الذي يعيبه حقا فهو الاصرار على الخطا والاستمرار في خداع الذات ومحاولة خداع الاخرين ايضا .

فقد كتب الاستاذ مطاع صفدي قراءة للعدد الماضي من الاداب، ورد على ما كتبه في العدد الاسبق حول مقال الدكتور عصمت سيف الدولة ومقاله هو شخصا . وقد اعتذر لقرائه في نهاية رده بأنه اطال عليه فليعدرنا القارئ بان اطلنا عليه ، فان العدد الممتاز واصداؤه في العدد الذي يليه ، قد اثارا مشكلات ليس لها اهمية علمية ، بقدر ما لها صلة واضحة بامراض الاعلام الذي راح ينتقل الى الثقافة بكل غوغائية (ص ٨٦) .

حسنا . . فلنشكر الاستاذ مطاع اولا على عنايته واهتمامه بالرء ولنحتفل برده هذا ايما احتفال ، لا لقيمته وما يمكن ان نتعلمه منه، بل لانه يتعرض لمشكلة لها صلة واضحة بامراض الثقافة . فالقضية اذن ليست قضية ذات اهمية علمية في حد ذاتها ، ولكنها قضية اخطر من ذلك كله لانها تتصل بامور « مرضية » تهدد ثقافتنا وبالتالي تمنع نهضتنا العلمية . ومن هنا كان لا بد ان نهتم بمناقشة هذا الكلام الذي ادى بصاحبه الى اكتشاف واعلان هذه الظاهرة المرضية التي تنتقل الى الثقافة بكل غوغائية .

ويمكن تلخيص ما تعرض له الاستاذ مطاع صفدي في ثلاثة موضوعات هي : اولا - ما كتبه عن الافليمية والفلسطينية والوحدة العربية وناييده لراي عصمت سيف الدولة ، وما نسبه الي حول هذا الموضوع . نانيا - رده على ما وجه الى مقالته في العدد الممتاز من نقد . ثالثا - جملة التبعات والانتهاكات والقمز واللمز التي وجهها الي والى الزميل الفاضل الذي شاركته في قراءة العدد ، وحديثه عن الماركسية التقليدية والمتركسين اللفظيين ، والذين لم يقرأوا الاصول ولم يفهموا مجتمعهم، وان قراءة ما يكتبه متعبة تماما لقراءة كبار الفلاسفة ، وان كتابته غاصة بمصطلحات الفلاسفة الحديثة شأنه شأن كبار الفلاسفة والمفكرين . . الخ.

وسأصرف النظر عن هذه التفوهات الاخيرة رغبة في الابتعاد عن الملاحاة واللجاجة التي لا جدوى منها ، ولننظر فيما قاله الكاتب حتى يمكننا ان نتبين هل هذه الانتهاكات والتفوهات اسقاطات ذاتية من عند الكاتب ام انه محق فيها ويقرر واقعا !؟

- ١ -

ولنبدا بالموضوع الثاني . . . وحتى يكون النقاش محمدا ، ولكي

تتضح الحقائق من الاوهام ، ونعرف اين هي الغوغائية التي تهدد ثقافتنا ، فسألترم عدم الرجوع الى مقاله الاول بالعدد الممتاز لازيد ما ذكرت توضيحا ، وسأكتفي بمناقشة ما كتبه في رده بالعدد الماضي فقط . واستاذن القارئ ان افتسب ما كتبه دفاعا عما نسبته اليه، من نوعين من الخطأ محمدين ، بكامله .

يقول الاستاذ مطاع « والناقد الذي لا يريد ان يقرأ الا نكزارا لافكاره الخاصة ، والذي يشعر ان هذه الالفاظ هي من باب المصطلحات العلمية ، ولكنه يريد مع ذلك ان يرفض علميتها ، فيأتي بجملة من المقال تقوم برهانها عكسيا على ما يعدي . ويتساءل ما هي « مؤسسة الموضوعية العلمية لدى الغرب » هل يريد الناقد حقا ان اشرحها له ؟ » (ص ٨٥)

اولا - انا لم اشعر ولم أقل ان هذا التركيب اللفظي « مؤسسة الموضوعية العلمية » يمكن ان يكون من باب المصطلحات العلمية، والا ما نقدته ، ولكنني ذكرته كمثال واضح على التعبيرات الخاطئة التي يستخدمها الاستاذ مطاع والتي « توهم بان لها مسحة المصطلح العلمي » وهي في الحقيقة فارغة ولا معنى لها ، أو لا مكان لها على الاقل بين المصطلحات العلمية .

فكيف جاز للكاتب اذن ان يقول انني شعرت ان هذا التركيب من باب المصطلحات العلمية الا انني ارفض علميته مع ذلك . . انسي لم انكر هذا التركيب اللفظي لانه تعبير عن مصطلح علمي لا اعرفه واريد منه ان يشرحه لي او لقرائه ، وانما انكرته لانه اصلا ليس بالمصطلح العلمي أو ليس بالتعبير الذي يوحي بمعنى معقول ومقبول. نانيا - ان هذا التعبير ، او التركيب اللفظي الشاذ بالاحرى ، « مؤسسة الموضوعية العلمية لدى الغرب » تركيب مفتعل لا مدلول له في الغرب او الشرق . وانما يستخدم الاستاذ مطاع امثال هذه التعبيرات المفتعلة والمختلقة ليوهم قراءه ويخدعهم بانه يحدثهم عن امور جديدة وخطيرة . . مولد مؤسسة الموضوعية العلمية . . فهو لا يحدثهم عن الموضوعية فقط كما يتحدث سائر الناس ، وانما عن شيء جديد لم يسبق لهم ان سمعوا به هو « مؤسسة الموضوعية » .

ولكن مثل هذا التركيب اذا كان لنا ان نأخذ الامور ماخذنا جيدا لا مزاح فيه ، واذا كنا نلتزم الاستخدام الدقيق لتعبيراننا وتبتعد عن التلاعب بالالفاظ والتاويلات التبريرية لها . . مثل هذا التركيب لا معنى له ولا وظيفة يحققها اكثر من ايهام القراء بان فائله يحدثهم عن امور غير مكررة ، امور جديدة تماما !

فالموضوعية كصفة من صفات البحث العلمي معروفة وهسي نقيض الذاتية ، ويمكن استخدامها استخدامات متعددة ولكن في معان محددة ومصطلح عليها ، كما نقول مثلا علم النفس الموضوعي ، والدرجات الموضوعية ، والسمات الموضوعية ، والوجود الموضوعي للقيم، والاساس الموضوعي لكذا . . الخ. وايضا المؤسسة كتنظيم مادي او معنوي معروفة ، كما نقول مثلا النظام الاقتصادي الذي يتمثل في مؤسسات اقتصادية ، ونقول ايضا المؤسسات الثقافية والتربوية والانتاجية ، ومؤسسات الحكم والرعاية الاجتماعية ، والمؤسسات القانونية والعلمية والفنية . . الخ ، مؤسسات ، منظمات ، شركات . . فالمؤسسة هنا يحددها تنظيم قائم فعلا سواء تمثل ذلك في كيان مادي أو معنوي ، وهذا التنظيم يخدم فعلا اغراضنا ومصالح معينة او يحقق تنظيما للعلاقات في نطاق خاص .

ولست هنا في مجال الحديث عن الموضوعية أو المؤسسة ، وانما نحن هنا فقط ازاء هذا التركيب الذي اصطنه الكاتب عندما قال « مؤسسة الموضوعية العلمية » وتحدث كذلك عن مولدها ، ثم زعمه ان هذا التركيب الشاذ والذي لا معنى له ، كان يقول ان هنا خطأ مطبعي ، تحتاج الى شرح « هل يريد الناقد حقا ان اشرحها له !؟ » .

هنا في مجال التاريخ لهذا المصطلح) .

١ - ان الاستاذ مطاع يترجم كلمة Mass media بالكتلة - الوسيط ، وقد ذكرت له ان الصواب هو « وسائل او وسائط (الاتصال) الجماهيرية » .

٢ - ان هذا التعبير عندما يقال فانما يقصد به Mass media of Communication وكلمة الاتصال Communication

هنا لا تذكر عادة نظرا لشيوع هذا المصطلح ، ويكتفي بالقول Mass media ومعناها الوسائل الجماهيرية (للاتصال) ، كالجرائد والصحف والراديو والتلفزيون والسينما والمسرح ... والبعض يترجمها وسائل الاعلام الجماهيرية ، او وسائل الاعلام الجمعي .

٣ - ان معنى كلمة Mass في أي قاموس عادي يعني القداس ، الحشد والجمع والجمهور ، الكومة ، والكتلة او المادة (في العلوم الطبيعية خاصة) ... الخ .

٤ - ان الكلمة اللاتينية الاصل Media جمع (المفرد Medium تعني الوسط والشيء المتوسط والوسيط ، والوسيلة والواسطة ، ومتوسط ومعتمد ... الى آخر المعاني التي يذكرها أي قاموس عادي .

٥ - ان تعبير Mass Media تعبير اصطلاحي اذن يقصد به المعنى المحدد الذي اشرنا اليه .

ثانيا - بعد هذه الايضاحات فليراجع القارئ اذن ما قاله الاستاذ مطاع ليجد انه يعتمد خداعنا وايهامنا بأنه يتوخى الدقة عند ترجمة المصطلحات .

فانا اريد ان افرض عليه « الترجمة العامة » وهو يرفضها بدوره ليجتهد وينحت الكلمة العربية الخاصة والجديدة التي تعبر بدقة عما يريد ماكلوهان من هذا المصطلح الغربي .

فهو يريد ان يوهنا اذن ان هذا المصطلح له معنى خاص ، عند ماكلوهان او غير ماكلوهان ، غير المعنى الذي يستخدم فيه بصورة عامة . ولكن لن ينفعه التستر خلف ماكلوهان هذا ، فليس لهذا المصطلح معنى آخر يستخدم فيه حتى نروح ونزعم اننا نحت له تعبير « الكتلة - الوسيط » الذي طلع علينا به .

ثالثا - ولكي يبرر الكاتب ترجمة Mass هنا بالكتلة بدلا من الجمهور ، زعم ان ذلك الصق بالهدف من كلمة الجمهور « فهي تثبت صفة التلاحم المادي لهذا النوع من الجمهور الذي تسيطر عليه عقلية القطيع المسير » ... فاي جمهور هذا الذي نسوده هذه العقلية ، وهل ماكلوهان هذا معاد للجمهور الى هذا الحد ام ان محاولة الكاتب تبرير ترجمته الخاطئة ورطه في معاداة الجمهور الى هذا الحد ؟

رابعا - ومع هذا فقد التمسيت للكاتب العذر في ترجمته الجمهور بالكتلة في هذا السياق ، وقلت رجل يدافع عن نفسه ويتناول التناولات لما صنعه ، ولا بأس ان يلجا الى هذه المماحكة ، وليرفض لفظ الجمهور وليصر على الكتلة ، فليس في ذلك ضمير كبير ... ولكن عندما وجدته يقول « ان كلمة » الوسيط اقرب الى المصطلح في هذا السياق ... وانها ليست الاتصال » ، فقد تأكد لي يقينا ان الرجل يتحدث فيما لا يعرف ولم استطع ان التمس له الاعذار لهذا الخطأ .

فكلمة Media يمكنه ان يترجمها الوسيط بدلا من الوسائل او الوسائط ، ولكن لو كان يعرف معناها في هذا التركيب ما قال انها ليست الاتصال ، ولما راح يستدل على ذلك بالاحالة التي صاحبها ماكلوهان ويقول « الا لكان استعمل لها الكاتب الكلمة الغربية التي تعني الاتصال بلفظة المباشر » ... ان لفظة الاتصال ليست مذكورة في تعبير Mass Media (الوسائل الجماهيرية) ، ولو دقق الاستاذ

وكان بإمكان الكاتب ان يتمحل لنفسه الاعذار الاخرى عن مثل هذا التركيب الشاذ والذي لا معنى له ، كان يقول ان هنا خطاطبيا ، او ان كلمة او كلمات سقطت فبدأ التعبير على هذا النحو ، او ان يقول انه يقصد به معنى خاصا به غير المعاني المعروفة لكلمة مؤسسة وكلمة موضوعية ... فهذه امور من السهل قولها والمماحكة حولها ، اما ان يأتي في رده ويؤكد لنا ان مثل هذا التركيب من المصطلحات العلمية او من مصطلحات الفلاسفة الحديثه جدا التي يضطر الى استخدامها ... فقد قطع على نفسه طريق التخريج والتأويل اللفظي والاستفادة من اسلوب المماحكات الكلامية التي تشيع في اللغة العربية هذه الايام ، والتي تمثل نوعا من العبث والهراء الكلامي الذي ينبغي ان نتخلص منه ... وصار حتما عليه ان يذكر لنا هذه الدلالة الاصطلاحية لهذا التركيب ، وفي اي علم من العلوم الانسانية يستخدم ، وعليه ان يحدد لنا متى ولدت مؤسسة الموضوعية هذه ، وما كيانها الذي تمثل فيه وما نشاطها ... وليترك هذا التساؤل الاستنكاري الخطابي الفج « هل يريد الناقد حقا ان اشرحها له ؟ » .. نعم ، فانا لم أسمع بمثل هذه المؤسسة في الغرب او الشرق ، ومن سمع عنها من القراء فليدلني عليها .

والقراء يعرفون ان المصطلح العلمي هو تعبير متفق عليه لدى المشتغلين بعلم من العلوم ليدل على معنى محدد واستخدام معين ، وما دام الاستاذ مطاع صغدي يزعم لنا ان « مؤسسة الموضوعية العلمية » مصطلح علمي فانني اتحداه ، ليس ان يشرح هذا التعبير ، ولكن ان يدلني فقط في أي فرع من فروع المعرفة يستخدم هذا المصطلح او التعبير ، ويكتفين ان يذكر لي نصا واحدا فقط استخدم فيه هذا التعبير ، ليس في اللغة العربية وانما في أي لغة اجنبية من اللغات التي يعرفها . وفي انتظار رده فانني اتمنى ان اكون انا المخطيء وان انعلم شيئا جديدا حتى ولو كان مجرد مصطلح علمي او فلسفي واحد . انني اعرف السبب الذي يورطه في مثل هذا الخطأ وهو ترجمته غير الدقيقة لتعبير اجنبي معين ... ولكنني لن اذكره له .

- ٢ -

وهذا ينقلنا الى مناقشة الخطأ الثاني الذي اخذته عليه عند ترجمته لبعض المصطلحات ترجمة غير صحيحة وغير دقيقة ، ثم تبريره لهذا الخطأ بما هو اسوأ منه ، وبما يكشف عن امور كثيرة افلها الادعاء واللجاجة ، ولانقل عبارته بكاملها .

يقول الاستاذ مطاع صغدي « ثم يناقشني الناقد حول ترجمة بعض المصطلحات ، ويفرض ترجمة معينة ارفضها بدوري اذ انها لا تؤدي المعنى الذي يريد ماكلوهان منها . انه يقترح الترجمة العامة ، في حين لا بد من نحت الكلمة العربية الخاصة ، للدلالة على المصطلح ، وليس على الكلمة العامة . والمصطلح الغربي Mass media وقد ترجمتها « الكتلة - الوسيط » لان ترجمة Mass هنا بالكتلة بدلا من الجمهور الصق بالهدف ، فهي تثبت صفة التلاحم المادي لهذا النوع من الجمهور الذي تسيطر عليه عقلية القطيع المسير . وكلمة « الوسيط » وهي اقرب الى المصطلح في هذا السياق ، لانها تعني الجسر الذي تعبر عليه التوجيهات ، وليست هي الاتصال ، والا لكان استعمل لها الكاتب (يقصد ماكلوهان طبعا) الكلمة الغربية التي تعني الاتصال بلفظة المباشر » (ص ٨٥ من الاداب) ... انتهى ما كتبه الاستاذ مطاع صغدي .

اولا - آسف ان اضطر قبل ان نناقش الكاتب فيما اراد ان يخدعنا به من كلام عليه مظهر الدقة - الى توضيح هذه الامور اللفظية البسيطة والاولية التي قد يعرض غالبية القراء حول هذا التعبير الذي استخدمه الأمريكيون واشاعوه على الارجح في اللغات الاوروبية (لسنا

الكاتب فيما ذكرته له في المقال السابق لوجد انني وضعت له لفظة الاتصال بين قوسين اشارة الى انني اذكر التعبير بكامله عند ترجمته ، ولكن الكاتب اضاف الى الماحكة الخط الصريح بين كلمسة الاتصال والوسائل وعدم تفرقة بينهما أو عدم معرفته بمعناها ... ثم يريدنا بعد ذلك ان نصدق انه يجتهد لينحت لنا الكلمة العربية الخاصة للدلالة على هذا المصطلح !! وان الذي يدعوني ليس هو خطأ الاستاذ الفاضل وانما انه كانت امامه الفرصة ليراجع هذا المصطلح فسي أي كتاب او مرجع حتى يتكشف له الصواب ولا يدع نفسه يتورط في اخطاء اخرى أسوأ من ترجمته للمصطلح بالكتلة - الوسيط .

خامسا - وبعد هذا فلعل الكاتب ان يقر معنا بأنه لا سبيل الى محل الوجوه التي يمكن ان نقبل بها تعبير الكتلة الوسيط الذي لا معنى له في هذا السياق او غير هذا السياق ، وانه لا يمكننا ان نتخذ بان ماكلوهان او غير ماكلوهان يستخدم هذا التعبير بمعنى خاص يجعلنا نتحت له كلمة عربية خاصة هي الكتلة - الوسيط .

سادسا - والمهم ان الخطأ في ترجمة مثل هذا المصطلح ، او حتى عشرة اخطاء مماثلة له في مقال واحد ، لا يمكن ان تعيب كتابا . ولكن الذي يعيبه حقا هو محاولة التنظير لخطأ واحد ، ومحاولة خداع القراء ، واتخاذ اسلوب يوهم بالاجتهاد وانه صاحب رؤية « اعمق من مجرد تكرار الكلام المحفوظ » ... فهذه هي الظاهرة المرضية المخيفة التي تنتقل الى ثقافتنا بكل غوغائية لتمنع نهضتنا العلمية ، والتي يجب ان نتصدى لها بكل قسوة وعنق حتى تختفي من حياتنا الثقافية .

وان كثيرا من كتاب و مترجمين ممتازين وقعوا في مثل هذا الخطأ ولم ينقص ذلك من قدرهم ، فهناك مثلا كاتب ممتاز ترجم التعبير الذي نتحدث عنه ترجمة اخرى خاطئة فترجمه « اوساط الناس » (راجع ترجمة « ما الادب » التي صدرت بالقاهرة سنة ١٩٦١ ، ص ٢٩٩) وقد ترجم بعضهم هذا التعبير ايضا بوسائط الجملة (راجع ترجمة كتاب الدراسة المثلى لنوع الانسان بقلم ستينوارت تشارلز طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٣ - ص ٣١٩) .

سابعا - قد يقول القارئ لماذا تسهب هكذا في تحليل خطاين ظاهرين في التعبير او في ترجمة المصطلحات ؟ فابادر السى القول ان الذي يعنيني ليس امثال هذه الاخطاء فالخطأ مسألة عادية ومقبولة والمرء معرض لها دائما ... ولكن المشكلة صارت ابعد من ان تكون جدلا

حول الفاظ او حول دقة الترجمة لبعض المصطلحات ، انها قضية اسلوب فكري بكامله يلجأ الى خداع الذات ومحاولة خداع القراء وابهامهم بالتعمق الكاذب ، يتكشف لنا واضحا من خلال كيفية تناول الكاتب لهذين التعبيرين وتبريره لموقفه . فالمسألة اذن ليست نزاعا حول الفاظ وكلمات جريا وراء الدقة فسي المصطلحات والتعبير فقط ولكنها ابعد من ذلك لانها تتصل بتصميم الفكر ومنطقاته ، وضوحا او اختلاطا ، صحة او فسادا . وفي مثل هذه الامور المحددة يمكننا ان نوضح الصواب من الخطأ بشكل حاسم ، اما اذا رحنا الى ميدان الشعارات العامة والقضايا السياسية العريضة او النظريات الادبية فمجال المهارة واسع ، ولا يمكننا ان نستبين ، بسهولة نسبية ، اذا كان المتحدث يدري ما يتناوله من موضوعات اولاً ، اذ من اسهل رفع الشعارات وادعاء الرأي الخاص ثم اللجاجة عند النقاش .

ومن هنا يمكننا ان ننقل بسهولة الى مناقشة الموضوع الاول لنجد نفس الاسلوب المخادع يتبعه الكاتب فسي محور قضايانا السياسية قضية « الوحدة العربية ومعركة تحرير فلسطين » ... فماذا فعل الكاتب ؟

- ٣ -

كتب الدكتور عصمت سيف الدولة مقالا في العدد الممتاز ثم قمت بالتعليق عليه في العدد التالي ، وجاء الاستاذ مطاع في العدد الماضي ليكتب لنا كلاما كثيرا سماه نقدا لهذا التعليق او قراءة له . وما كان اسعدنا بما كتب ، بالرغم من كل هذه التفوهات والتعوت التي وجهها اليها ، لو انه ادار حوارا او مناقشة مع فكرة واحدة مما ذكرناه عن القضية الفلسطينية وابعادها الثلاثة - الدولية والعربية والفلسطينية - وما قلناه تعليقا على ما قيل عن الوحدة العربية ومعركة تحرير فلسطين .

ولكنه للأسف لم يفعل شيئا من ذلك .. وانما راح يصارع طواحين الهواء في فروسية مدعاة . واخذ يتحدث عن الذين ما زالوا يتمسكون بفكرة الثورة الاقليمية ، والذين يستريحون بالوحدة العربية ، والذين يرون ان التأكيد على الوحدة وهم وخرافة ، والذين يسفون وحدة النضال العربي لتحرير فلسطين ، والذين يريدون تقييد السعى الى الوحدة ، واصحاب الايديولوجيات « التقدمية » الزائفة ، والذين يرون ان الوحدة العربية اصبحت مستحيلة وغير واقعية ... كفى .

تأليف

الدكتور علي جواد الطاهر

اول دراسة مسهبة عن رائد القصة العراقية

الحديثة الذي اثار اهتمام المستشرقين والباحثين بما

انتجه من روايات وقصص مهدت الطريق لجميع كتاب

القصة الحديثة في العراق

منشورات دار الآداب ، بيروت

محمود أحمد السيد

رائد القصة الحديثة في العراق

فلسطين» ، فعرفت انه يحول كلامنا العربي الى لغة اجنبية اولا (الانجليزية مثلا) ثم يفهمه فهما مقلوبا ، وبعد ذلك يعيده الى العربية مرة اخرى ، فيتعرض معه ويختلط عليه . فعندما نقول مثلا ان دولة الوحدة غير قائمة « وغير مستخدمة » ، الا ان في المعركة ، فانه يترجم كلمة « غير مستخدمة » بمادة « Use » الانجليزية وعكسها ، وعندما يعيدها الى العربية مرة ثانية تصير بين يديه « لا فائدة من استخدام » ... ارايت اذن هذه الحالة البالغة الطرافة من الثقافة والفهم !!

ولست هنا قضية سياسية او غير سياسية اناقشها مع الاستاذ الكاتب فالامر ايسر من ذلك بكثير ، انها قضية الامانة فيما يتصدى الكاتب للكتابة عنه ، وقضية اختلاق الآراء ونسبتها الى من نزع اننا نناقشهم . وقد رأى القارئ بوضوح كيف اصبح التأكيد بشكل مطلق على الامكانية التحريرية الهائلة لدولة الوحدة وضرورة الدعوة اليها والنضال من اجلها ... كيف اصبح هذا كله لدى السيد الكاتب اننا نقول « انه لا فائدة من استخدام الوحدة في معركة تحرير فلسطين » ، وعندما نقول ان ذلك النمط من الفكر السياسي الذي قدمه الدكتور عصمت نمط يضرب بالمارسة الثورية ويدخل في مملكة التنظير المجرد والتهويم في اللاتاريخي والعيش في اليوتوبيا ويتوه عن المسالك العملية والمناسبة ... يعرف الكاتب كلامنا على هذا النمط من التفكير وينسبه الى الوحدة العربية ، واننا نقول انها اصبحت مستحيلة وغير واقعية ... ما هو الاختلاق والافتراء وعدم الامانة اذن ، اذا لم يكن هو هذا الاسلوب في تناول المسائل !!

اننا نكتب باللغة العربية التي ينبغي ان يفهمها الكاتب الفاضل ، ولسنا نكتب بالانجليزية او الفرنسية حتى يخطئ الكاتب ايضا فسي ترجمة ما نقول الى لفته العربية الخاصة والجديدة التي يريد ان يخدع بها قراءه ويوهمهم ان وراء ما يقول فكرا عميقا وجديدا .. ولكن من واجبتنا ان تكشف هذه العملية المزدوجة من خداع الذات ومحاولة خداع الآخرين ... ولهذا السبب وحده كتبت هذا الرد .
القاهرة

عبد الجليل حسن

نعم ، كفاه مصارعة اللوهم ، وكفانا مقالطات واختلاطات .

ولن اناقشه في شيء من هذا الذي نسبه لي ، ولن اساله كيف واتته البراعة ليحشد كل هذه الافتراءات في مقال واحد ، وانما ساعد الى اوليات الاسلوب العلمي حول « الامانة » عند التعرض لما يكتبه الآخرون عندما نريد ان نناقشهم فيما يقولون وعندما نتصدى للكتابة عنهم . فالقضية هنا ليست قضية حوار فكري حول موضوع من الموضوعات ، وانما هي قضية « الامانة » مع الذات ومع الآخرين .

زعم الاستاذ مطاع انني اقول ان الوحدة العربية طوباوية وغير واقعية ومستحيلة ، وقال ايضا « ان عبد الجليل حسن يقول في بداية نقده ، انه ما دامت لا توجد دولة وحدوية ، فانه لا فائدة من استخدام الوحدة في معركة تحرير فلسطين » (ص ١٣ ، العمود الاول ، من العدد الماضي للاداب) ... لا فائدة من استخدام الوحدة فسي معركة تحرير فلسطين ... هكذا ! هذا ما يزعم الكاتب الفاضل انني قلته .

ولاعيد على القراء ، حتى يشهدوا صورة نموذجية من تشويه الاقوال واختلاقها ، نص ما قلته في بداية نقدي ... « كل ما قاله الكاتب (اعني عصمت سيف الدولة) عن الوحدة العربية وما تحمله من امكانية هائلة من اجل تحرير فلسطين من الكيان الصهيوني ، كلام صحيح بشكل مطلق . ولكن هذه الوحدة ودولتها ليست قائمة فعلا ، ومن ثم فهي غير مستخدمة في المعركة ، وما زالت هدفا على الشعوب العربية ان تسعى اليه وتناضل من اجله » (العمود الثاني من صفحة ١٣ بالعدد السادس من الاداب) ... وفي الصفحة التالية مباشرة رحبت اعيد التأكيد على الامكانية التحريرية لدولة الوحدة ، وقلت ان الكلام « عن الامكانية التحريرية لدولة الوحدة كلام صحيح تماما ، ولكنه يظل هدفا علينا ان ندعو ونعمل من اجل تحقيقه . ولكن كيف العمل الان ما دامت دولة الوحدة غائبة ؟ .. الخ » . فكيف اذن اساغ الاستاذ الكاتب لنفسه ان ينسب الي ما نسب من رأي ، ان لم يكن يهوى مصارعة اللوهم !

وبالرغم من وضوح هذه العبارات التي قلتها وضوحا لا لبس فيه ، فاني فكرت في الامر طويلا لاستبين المنزلق الذي جعل الكاتب يزعم انني قلت « انه لا فائدة من استخدام الوحدة فسي معركة تحرير

الماركسيّة والمسألة القوميّة

بم
جورج طرابيشي

اول دراسة موسعة ضافية في اللغة العربية عن موقف الماركسية من المسألة القومية بمختلف صورها، وفيها فصل طويل عن موقف الماركسية من القضية اليهودية .

... ق . ل .

صدر حديثا عن دار الآداب ، بيروت

تنمة مناقشات الثورة والادب

تنمة المنشور على الصفحة - ١٢ -

انها اعتبارات « الظروف » .. للاسف !

واعود الان الى مناقشة مبدأ آخر اختلف فيه مع الاستاذ العالم ذكره في مطلع نقده لمفالي . يقول غني هكذا ، ومرة واحدة ، والقول هنا حكم « انه يتبنى النتائج التي انتهت اليها المدرسة الهيكلية ، او على حد تعبيره المدرسة البنيوية ، وهي مدرسة سناتيكية ميكانيكية في تقديري تهدر الدلالة الديناميكية الحية للغة الانسانية » .

فالناقد يقول اولا انني انبى نتائج المدرسة البنيوية ، ثم يحكم حكما آخر فيصف هذه المدرسة بالسناطيكية والميكانيكية . وغنى عن البيان ان الناقد لم يجشم نفسه عناء تقديم الادلة ، او على الاقل ايراد العبارات التي تدعم حكمه هذين . ولننجاوز هذه النقطة .

واقول للاستاذ العالم انني لم اعلن بعد تبعتي للمدرسة البنيوية ، وهو لا يملك اي دليل موضوعي ضد انكاري هذا . ولكنه اعتبر ان مجرد عرض بعض افكار وآراء هذه المدرسة التي كانت ميزتها الكبرى تكمن في دراساتها الفنية حول بنية اللغات الانسانية وعلاقتها بفعاليات الحضارة ، هذا العرض وحده يكفي لاتهام صاحبه بأنه ضالع في تبني النظرية التي يستعين ببعض آرائها في توضيح موضوع فكري يعلم الاستاذ العالم ، انه لا يجوز تجاهلها ، وهي في اوج تأثيرها الثقافي الكبير الشامل .. حتى على ماركسية الاستاذ العالم العزيزة .. ولكن ماركسية الحضارة الغربية ، وليست ماركسية بعض مثقفي الشعوب النامية ، التي وصفها « لوسيان سباغ » الماركسي البنيوي ، بأنها اشبه بالدين الشرقي العتيق من حيث التعلق بالحرفية ، والتمصّب للالفاظ والاشكال الصورية فيها . ثم انني اختلف مع الاستاذ بحكمه العاجل الجازم القاطع ، بان المدرسة البنيوية هي سناتيكية وبنويية . فلقد تكون لها نواقص كثيرة ، غير هذه . ذلك ان البنيوية قامت في الاصل وعند مؤسسها الاول « ليفي ستروس » لتحليل اعق علاقة ديناميكية ، الا وهي علاقة الفكر بالسلسلوك الاجتماعي . ولعلمني لا اعلم الاستاذ العالم ما لا يعلم . اذ اقول له ان من بين اعلام هذه المدرسة التشعبية اليوم فلاسفة وعلماء كبار ماركسيين امثال « لوسيان سباغ » نفسه ، الواردة ذكره في المقال ، واكثر من هذا ، فان مراكز ابحاث كثيرة تنشأ اليوم حتى في الدول الاشتراكية الاوروبية لدراسة الفلسفة اللغوية بحسب ابحاث العلماء البنيويين انفسهم . وليست اعتقد ان الاستاذ العالم هو من انصار اغلاق النوافذ ضد ما ليس مطابقا لعقائدنا الوثوقية . وخاصة ان المذهب البنيوي هو منهج فلسفي علمي ، قد نختلف مع اصحابه في بعض اسسه العيارية ، ولكن المحصول العلمي الذي يأتوننا به في ميدان الكشف عن اسرار اللغة اجتماعيا ونفسيا ، لا يمكننا ان نرمي به بمجرد ان اصحابه ليسوا جميعا ماركسيين ، وعلى طريقنا في اعتناق الماركسية .

لعلي اطلت في هذا الرد الذي اردته مدخلا الى موضوع قد يهم القارئ اكثر من اهتمامه بجدل بين كاتبين ولكن الرد طال حتى استفرق الموضوع الذي نويت له صياغة فكرية مستقلة . ولعل امتداده ذلك قد اصبح يدل على جوهر المشكلة التي لن اعفي نفسي من معالجتها في موضوع قادم .

غير انني اجتزى القول هنا لبحث نقطة هامة قد يكون الاستاذ العالم اثارها وهو يعرض لمفهوم عن الثورة الثقافية ، فهو اعتبرها نتيجة للثورة السياسية، في البلاد التي لم تصل فيها الثورة الى مرحلة السلطة . وهو اعتبرها في البلاد التي تم الوصول فيها الى السلطة ، انها مرتبطة بالامية وقال : « انه لا سبيل الى تحقيق ثورة ثقافية عربية في البلاد التي نجحت فيها الثورات التخريبية والتقدمية ، ايا كان مستوى هذا النجاح ومداه وعمقه ، الا بالقضاء

« الاستبدال » ، ولقد تطرفت في مقاطع مطولة من مقالي الى شرح عملية الاستبدال هذه ، واكتفيت بتحليل مبادئها دون الفوص في تفاصيل تطبيقها ، ولوسقت مثلا الان للتوضيح ، نقلت ، كما قلت في مقال سابق ، كان نحت عنوان « محاكمة ثورة ٢٢ تموز في مجلة مواقف » المنشور في « الاداب » ، ان الثورة الفلسطينية ليست بديلا يمحو كل ما سبقه وعصره من الثورات ، بل ان التاريخ لا يعرف الاستبدال ، ولكنه يعرف التكامل بين احادته الجسم سلبا وايجابا من خلال التفاعل الحي على ارض الواقع الانساني ذاته .

فلست اذن من القائلين بالعودة الى الصفر ، اذ لا صفر في التاريخ . ولا ادري لم تفرض علينا مثل هذه الاحكام التسففة مجرد طرح مبادئ لاسس نقد ، يمشى مع معايير كل نظرية علمية ، وفي طبيعتها الماركسية ذاتها .

واما ما يعدده الاستاذ العالم على هواه من التهديدات بانسي « اتحدث كأنما لم تتحقق في العالم العربي منجزات تحمل كلمات التحرير والتأييم والتصنيع والنضال الثوري المسلح والتحول الاشتراكي ، والنضال ضد الاستعمار والصهيونية وعشرات وعشرات غيرها » وعشرات من هذا التلفيق الذي لا نقره رصانة علمية عرفت عن الاستاذ العالم ، وكانت موضع احترام اصدقائه وقرائه . وليست اراني هنا في معرض الدفاع عن وطنيتي ، فاني لست مجهولا الى الحد الذي يمكن ان يمر موقفني بمثل هذه الصرخات البعيدة عن جو الزاهية في التاويل والتحليل لنصوص ، كانت ولا شك توحى بعكس ما اوحت الى الاستاذ العالم بين ابدي المئات من القراء الذين لم يقنهم هدف المقال ابدا ، بمثل هذه الصورة التي يتعمد البعض ان تفوته خلالها مقاصد العبارات .

- يقول الاستاذ العالم نفسه في مقدمة مقاله وهو يحاول ايجاد صياغة مهيبة في موضوع دقيق ، ليتحدث عن تخلف مجالات الثورة الثقافية في البلاد التي حققت ثورات تقدمية ، بقول « ولكننا لا نستطيع ان ننكر ان بقايا التصورات والقيم والاذواق والمعادن المتخلفة التي تنتسب الى مجتمع ما قبل الثورة ، ما تزال تنفس وتعيش وتسيطر في القرية والمدينة على السواء ، وما تزال تمثل تخلفا في حركة التحول الثوري في المجتمع ، وخلا في الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة . ولستنا نعلم الصواب . ان قلنا انها كانت مصدرا من مصادر هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ » .

عجبا فما بال الاستاذ العالم يستهجن في الآخرين ، ما يببجه لنفسه وقلبه ، وما باله هكذا دفعة واحدة ، وخلال مقطع واحد ، يتطور من هدوء العبارة في وصفه للمشكلة ، بانها « رواسب » ثم يعمم الفساد في الاخلاق والتفكير في القرية والمدينة ، ثم يعمم اكثر (ويا للهول!) الخلل على « الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية » حتى لا يستطيع ان « ينكر » ان ذلك كان سببا من اسباب هزيمة حزيران .

فما الفرق بين هذا النص ، ونصوص المقال الذي نقده وجرحه واقام النكير على رأس صاحبه ، واعتبره عدوا للثورة ؟ ان الفرق بين الحديث عن المبادئ والتعليل النظري وبين الحديث في الاوصاف السريعة التطبيقية التي مع ذلك تلخص الموضوع ، ولكن لا تفسره ولا تقلله ، وتتهرب من تحليله ، وتكتفي بعرضه هكذا مجردا سريعا رمزيا للتلازم مع « الظروف » .

فلماذا لا نقول اذن ان الاستاذ العالم ، الايديولوجي الماركسي المعروف ، ينادي بالعودة الى الصفر او ما يشبه الصفر على الاقل ؟ وما الذي يربطنا اخيرا في هذا « الصفر » المجيد ؟

على الاممية الاجيدية والاممية الثقافية ، الا باجتناث بقايا التصورات والقيم والاذواق والعادات المتخلفة ، التي تنتسب الى المجتمعات الاقطاعية والراسمالية والاستعمارية ، والا باشاعة الفكر العلمى الموضوعي بين الجماهير .)) وهكذا عدد الاستاذ العالم (ما يجب) ان يتحقق من اسس علمية وثقافية لكي تتحقق الثورة الثقافية . فهو اذن يعترف بان مجرد وصول الثورة الى السلطة السياسية ، لا ينقل المجتمع الى حال التقدم الثقافي بصورة آلية . في حين ربط تحقق الثورة الثقافية في المجتمعات غير المحكومة ثوريا ، باستيلاء الثورة على السلطة . وهكذا اختار الكاتب الطريق السهل لعرض افكاره ، ولم يطرح اسس المشكلة الرئيسية . ذلك ان الثورة الثقافية لا تعنى تغييرا في وضع الجماهير في حال الاممية الى حال المعرفة فحسب ، ولكن تعنى التحويل الجذري في علاقة المجتمع مع ظروفه المادية والمصرفية والتاريخية في آن واحد ، وحسب ايقاع متوازن بين هذه المعادلات الثلاثة . فالثورة السياسية المقطوعة الجذور عن عملية التغيير في العلاقات المادية والمعرفية والتاريخية ، والمكتفية بالاستيلاء على السلطة الفوقية ، قد تصبح مميّقا ((ثوريا)) للثورة الشمولية الحقيقية . ولهذا فلا يمكن ربط التغيير الثقافي الحضاري آليا بالتغيير في السلطة فحسب . ذلك ان كثيرا من تجارب العالم الثالث القائمة اليوم، قد عزلت فيها الثورة السياسية في القمة وقطعت عن جذليتها مع الواقع المادي والتاريخي لمجتمعها ، وذلك بسبب اساسي وحيد ، وهو مسخ العمل الثوري في قالب الصراع السلطوي ، ثم استمارة السلطة لجميع شعارات الثورة ، مما حول هذه الشعارات الى مجرد الفاظ ، مع بقاء واستمرار الواقع المتخلف كما هو . وبذلك يتساوى الواقع العربي في ظل دولة ذات سلطة ثورية قمية ، مع الواقع العربي في ظل دولة ذات سلطة رجعية ، ما دام التغيير لم يحدث الا على مستوى القمة المسيطرة . ذلك لا ينطبق بالطبع على جميع تجاربنا الثورية . فان هناك تجربة رائدة ، هي الثورة الناصرية ، التي ما زالت تكافح لادخال الجدلية الثورية الى صميم الهيكل المادي والاجتماعي في بلدها ، وتناضل للخلاص من تناقضات السلطة والثورة التي حملتها معها من عهد ما قبل النكسة .

فنحن اذن نرفض ان نتعامل مع هياكل سلطوية تنثر القواميس الثورية وتبيع وتشتري بالالفاظ انتصارات وانجازات على رأس هرم لم يتغير فيه الا قبعته . واعتقد ان الاستاذ العالم يشاركنا هذا الرفض ولو تطلب منه ذلك تخطي الدبلوماسية في مجال البحث الفكري والعلمي .

لقد ترك الاستاذ العالم كلامه يسير حسب اسلوب تقريرى وصفى ولم يجرب مرة واحدة ان يقدم تعليلا او تبريرا فهو اطلق هذا القانون: الثورة الثقافية مرتبطة بالثورة السياسية . ولكن لم يسأل العالم: ومن يحقق هذه الثورة السياسية ، وما هو الاسلوب ، وكيف تحكم الثورة السياسية . هل اعتبر العالم ان الاجوبة على مثل هذه الاسئلة واضحة بديهية ، مفروغ منها ؟ اوليست هي عصب المشكلة التفسيرية كلها ، وفي بلاد كبلادنا خاصة ؟

ان محاولة اعطاء الاجوبة لا تتم بتقديم النظريات الجاهزة . انك لا تستطيع ان تقول لي : عد الى الماركسية . فلسوف تلقى اذن مفاتيح جميع الابواب المغلقة المستعمية . ولن تستطيع ان تصمحي بان ((اعان ماركسيتي)) كي اصبح قادرا على تحقيق الثورة المطلوبة في ظروف مجتمعنا .

هذا هو اختلافنا مع فئة من الماركسيين ، الذين ندعوهم بالحرفيين ، والذين ما زالوا يصرّون على ان مجرد ترديد ((الآيات)) الماركسية ، يسمح لهم بفتح العالم ثوريا . وهم بذلك يقعون في وهم الاعتقاد بقوة اللفظة من ذاتها على التغيير تلقائيا : قال ماركس، وقال لينين ، لا يفيد ، وهو ما افاد الاحزاب الشيوعية العربية منذ اربعين عاما واكثر ، بل زاد في غربتها وعزلتها عن الاحداث المصيرية

الكبرى ، التي قلبت وجه العالم العربي ، وجعلت اكثر هذه الاحزاب تبحث عن مكان لا حق بالقوى الصاعدة ، الا تلك الفئات من المثقفين الماركسيين ، الذين ادركوا ان الماركسية منهج فكري علمي ، ومصدر ثر للثقافة والفهم والتحليل ، وانها ليست فابا من حديد ، قابلا لان يختر فيه كل موضوع ، ولو حطمتنا زوايا الموضوع ، وكسرنا ننوءاته واعضائه ، لنفسره على الدخول ضمن حدود الاطار الجامد .

والاستاذ العالم كان اقرب دانا ، كما حدثت ذلك من خلال مقالاته ومواقفه ، الى اعتبار الماركسية منهجا علميا وليس كتابادينيا، كل تعديل او تليين لبعض افكاره يعتبر الحادا وزندقة . والمنهج يتطلب اخلاصا آخر ، انه اخلاص التطبيق الامين على معطيات الواقع بدون وزن لردود الفعل الكابحة . كما ان تطبيق المنهج العلمي يتطلب كذلك علوا بالقيمة العلمية فوق القيمة النظرية . فحيثما قدمت التجربة مادتها الخاصة التي لا يستوعبها المنهج ، او بعض منطلقاته، فاننا مع الموقف العلمي ضد ييوسة المنهج . والموقف العلمي يأمرنا الانجاهل الجديد في التجربة ، والخصوصي في بنيتها ، والا نكون وقنا في وهم اللفظ المعزول عن الشيء الذي يمثله . اذ ان المنهج ان لم يتلاءم مع عاداته ، اصبح كومة الفاظ لا تني ولا تفيد ، ولا تملك اية قوة سعريّة على تغيير العالم بايقاع اللفظ ، وعلان الانتماء الى عناوين اللفظ وحده .

ولسنا هنا في مجال استعراض التعديلات الخطيرة التي نتاول ، اسس النظرية الماركسية لضرورة المنهج ، ولا التعديلات التي تناولت مفايس المنهج لضرورة التكيف مع معطيات تجارب الثورات الانسانية المعاصرة . ولكننا نكتفي بالاشارة فقط ، الى ما استطاعت ان تقدمه للتجربة الثورية العربية خلال ثلث قرن تقريبا ، وهي ما قادها ماركسيون حرفيون ، ولا حققها طبقون اجتماعيون ، على طريقة المختزل المجرد الذي يعزى الى الماركسية عادة لدى هذه الفئة من المندنين بدين الماركسية ، لا من العلميين المستفيدين من الثوابت العلمية في الماركسية كنظرية منهج تحليلي واقعي .

والمشكلة في الواقع تعود الى نزعة استبدال الالفاظ بالفاظ اخرى ، مع بقاء الاشياء جامدة في منأى عن التحويل والتغيير . واليوم ومع تعاطم الموجات الثورية العربية ، يزداد طرح النظريات العلمية المنتمية الى العناوين الماركسية ، ولا شك في ان بعضها القليل يحس حاجة مشروعة للتزود بالفكر العلمي في مجال الممارسة الثورية ، ولكن ربما تنقصه الروية والاستعداد للدرس والتنظير ، والجدل الحي ، فيسارع الى استخدام القوالب ، ويهمل مضمون التجربة . وتقليسه نزعة تحديد الموقف السياسي بالالحاح على عناوينه الماركسية الجديدة ، لدرجة الطفولة احيانا يساريا ، والاعلامية الفقيرة في مجال الصراع الابدويولوجي ، الذي بات اسير صراع الفاظ اكثر منه جدال مواقف محلودة ، موزونة بقدر نقلها في التأثير على ملامح المعركة الاساسية .

والكثير من هذه التيارات الحديثة المستحدثة تجرّفه حمسى الزايدات اللفظية ، فيضع مقياسا لثوريته الجديدة . بقدر كميّة المصطلحات المرددة من قواميس الماركسية .

وتلذ له عملية التبرؤ الكامل من جميع ملامح التجارب الثورية العربية السابقة ، الى درجة استبدال الواقع بالقاموس الابدلوجي وهؤلاء كذلك يتابعون مرض الدوران ضمن دائرة الالفاظ ، وتجاهل الاشياء ، اشياء الواقع ، ما حدث ويحدث له ، ما تخترقه من عوامل موضوعية ، وما تصطرع فيه من قوى اساسية وقوى مدسوسة ، وما تتخذ حركة تغييره من تشعبات، وما تصطدم به من عقبات ذاتية وخارجية .

وهنا كذلك يريج هؤلاء الثوريون انفسهم من عناء استخدام المنهج الذي يحملون عنوانه ، ويجحدون المنهج عبر الفاظه الكبيرة ، وينكفون عن مواجهة الواقع ، وانتزاع صور تحليلية عن بنيانه ، تفيد فعلا في التمهيد لوضع استراتيجيّة ثورية جديدة ، قادرة على الانحداد

مع حركة الجدلية التاريخية ، قادرة على تفجير القوى الثورية الكامنة في بنية الواقع ، وفرزها واستقطابها لتوجيه الحاضر العربي من برائن الهزيمة والضياع ، والفرار الى الاستبدال الظاهري ، السى الشروع الجدي المسؤول في رسم الطريق الثوري التاريخي .

ان الهزائم التي ما زلنا نندارسها في ثورتنا الثقافية - غير الموضحة وغير المحددة بالرغم من كل شيء - ما زالت هي كذلك ، ثبت اننا نحيا في واقع نجهله مرة ، ونتجاهله مرات عديدة . واننا مسوقون بالشعارات بدلا عن التوعية المسؤولة ، واننا مدفوعون بالنوايا الطيبة جماهيريا ، والنوايا المستغلة شرذميا ، والنوايا المصلحية سلطويا . واننا قليلا ما بارحنا آلية الانجذاب الى ما يجدهد لنا قانون الاستبدال من المظاهر دون الحقائق . واننا سريعو الاخذوالتعلق بالموسيقى اللفظية ، قليلو الصبر على المعنى ، وعلى البحث عن اصوله في عظم الاشياء ، قبل ان يكون في صدى الكلمات .

والقادة الفكريون للأسف لا يقاومون الاندفاعات ، ولا يستفهم تحدي الحقيقة والوضوح . وسرعان ما يبحثون عن مكانهم التقليدي في طليعة المظاهرات . يطون شعارات في جيوبهم ، ويتقاتلون على مسك عصي الشعارات الجديدة المرفوعة وتنغم اصواتهم مع الهتافات وتبتلعهم واصواتهم مكبرات الاصوات الاعلامية .

الالفاظ نائرة مثارة يا استاذ امين العالم ، والاشياء باقية على حالها ، ولو تغير فيها ما يفرضه التاريخ ، لا ما تفرضه ارادتنا للأسف .

مطاع صفدي

تنمة عن الثوري الجديد . . والثورة

ان المنسحبين قد يتحولون فجأة الى قوة نائرة عندما يتوفر لها مجال الاختيار الحقيقي . كان يظهر فجأة شخص او حزب متفوق يحمل نفمة جيله ويقدم برنامجا يصلح لان يكون حلا حقيقيا . وهذا ما حدث في ألمانيا عند ظهور هتلر ، فقد كان معظم الذين انتخبوه من الذين لم يشتركوا في الانتخابات من قبل لعدم جدواها في نظرهم . وهو كذلك ما حصل في روسيا عند ظهور لينين . (ص ٣٥ - عدد ٦ - مواقف)

فاذا كان الدكتور حليم بركات يفكر في الثورة العربية على هذا النحو ، فهو ليس ثوريا بالقطع ، وانما هو مجرد تلقائي وعفوي ومغامر . . الا اذا كان شيئا آخر لا ندره .

انه يعني بالمنسحبين اولئك الذين يتخلون او ينسحبون من الصراع الثوري للحظة او لمرحلة معينة من مراحل الصراع الاجتماعي او الوطني : من مراحل الثورة . ولكننا نعلم ان هتلر لم « يتتخبه » المنسحبون ، وانما انتخبته اساسا جماهير البورجوازية الصفيصرة والعمال المهرة الذين طحتهم الازمة الاقتصادية في اوائل الثلاثينات وقدم لهم الحزب النازي برنامجا زائفا اعتمد فيه على الاحلام الشوفينية ، والطبقة الضيقة لهذه الطبقة القصيرة النظر . ولكن هتلر في الحقيقة لم يصل الى الحكم بالانتخاب وانما عن طريق الارهاب : ارهاب القمصان البنية وجيش العاصفة الهتلري، وعن طريق التحالف - بالتهويل واسداء الخدمات المتبادلة - مع كبار الرأسماليين الامرياليين الالمان والانجليز والاميركيين والفرنسيين ، واستلم السلطة فعلا وهو « ساقط » في الانتخابات عن طريق الضغط الارهابي على هندنبرج المارشال العجوز ممثل البونكرز الالمان (طبقة ملاك الارض الكبار والعسكريين القدامى في الجيش البروسي) . والحزب النازي لم يظهر فجأة ولم يقدم برنامجا يصلح لان يكون حلا حقيقيا وانما ظهر في منتصف العشرينات ودخل علاقات كثيرة معقدة مع احزاب رجعية اخرى ومع بيوت مالية وصناعية كثيرة وقدم برنامجا زائفا كان يصلح في ظروف محددة واعتمادا على فئات معينة ان يبدو كبرنامج

حقيقي .

اما لينين فلم يظهر فجأة ايضا ولم ينتخبه المنسحبون . وانما استمر يخطط للثورة وينظم فيادتها ويمعي حولها جماهيرها طيلة خمسة وعشرين عاما الى جانب عدد من كبار الثوريين الروس الذين كانوا بعيدين عن التلقائية وال عفوية والمغامرة ، ولم يشرع لينين في « التنظيم والخطيط والتعبئة » الا بعد ان بذل شخصا جهدا جبارا من اجل الحصول على معرفة دقيقة بظروف المجتمع الروسي وتطوره الاقتصادي والسياسي والثقافي ، ولم يظهر لينين نفسه الا كثرة لجهود جبارة سابقة استمرت اكثر من مائة عام بذلها المثقفون الثوريون الروس من اجل الحصول على الوعي اللازم للثورة بالمجتمع الروسي ومن اجل بذر هذا الوعي في صفوف ملايين الفلاحين والعمال والمثقفين الروس .

اما المنسحبون الحقيقيون - يا أيها الدكتور - فمن المستحيل ان يتحولوا الى ثوريين فجأة او بالتدريج . قصاراهم ان يدفصوا الى حلف الثورة في مرحلة محددة تدفعهم اليها الفئات الثورية حقا في المجتمع المنظمة والواعية وحاملة المصلحة الحقيقية في الثورة وحاملة الفكر الجديد والقدرة على اعادة خلق العالم من خلال الصراع ضد القديم العفن . الفئات الثورية حقا لا تنسحب من الثورة وانما هي تمارس الثورة في مستويات متعددة - الاضراب الاقتصادي مثلا او المقاومة السلبية او المظاهرة المسلحة او الانتفاضة المسلحة العفوية او المنظمة جزئيا . وهي تتصاعد بالعمل الثوري بالتدريج حتى تتمكن من ان تفرز قيادتها العلمية القادرة على اكتشاف قوانين الثورة والتغيير الاجتماعي وقوانين العمل الثوري المنظم - هذه القيادة التي يكون عليها ان « تنظم » العمل الثوري وان توجهه وجهته الصحيحة دائما من اجل تقيض السلطة السياسية في المجتمع وتسليمها للفئات الثورية حقا والثورية الى الابد والتي لا تنسحب ثم تعود فجأة . الفئات الثورية حقا قد تضع يدها في يد المنسحبين ، ولكنها تضع ركبتهما في ظهرهم حتى لا يفكروا في الانسحاب قبل ان يستهلكوا نهائيا طاقتهم الثورية في خدمة الثورة . انهم قد يسقطون بعد هذه المرحلة - الا من تتم تربيتهم بروح الثورة الحقيقية التي لا تعرف الانسحاب وانما تعرف تغيير اشكال العمل الثوري ومجالاته تبعا للظروف الموضوعية والذاتية السائدة .

اما المواصفات « الثمانية » للثوري الجديد التي وضعها الدكتور حليم بركات (المنسحب الذي اهتم فجأة بالثورة) فليست اكثر من شتات من افكار عامة لا خلاف حولها عن رفض تقديس التراث والشفق بالمستقبل والحكم على الاشياء عن قناعة خاصة والتفتح على ثقافات شعرب العالم والشفق باعادة خلق العالم وتبني وجهة نظر جديدة الى المرأة والجنس ورفض الرقابة والايمان بحرية الفكر والتكيد على العدالة ورفض كل الوان التمييز والحرمان والتسلط والاستغلال .

ولكن هل المشكلة حقا هي وضع مواصفات عامة عما يسميه الدكتور حليم بركات بالثوري الجديد ، وفي صياغة ادبية مطاطة ؟

المشكلة ايها الدكتور نظرهما عليك في اسئلة نود ان نقرأ اجاباتك عنها في مجلة مواقف مثلا او في ملحق النهار الادبي :

المشكلة هي ما موقفك من الثورة العربية وما رؤيتك لها به ؟ ما موقفك من قضية الوحدة العربية السياسية والاقتصادية ؟ ما موقفك من الصراع ضد الاستعمار الاميركي وضد الصهيونية وضد امراء البترول والحريم وكبار ملاك الارض المتواطئين مع الاستعمار والذين يقدمون اكبر الخدمات للصهيونية ؟ ما موقفك من قضية السلطة في المجتمع العربي ومن الطبقات المستغلة الكبيرة التي تسيطر على مجتمعات عربية كثيرة وكاملة ؟

انك مهتم جدا برفض التراث با دكتور ولكنك تنسى ان ملسوك البترول والحريم هي التي تحمي وتفرخ كل الجوانب العفنة والريضة من ترائنا ، ما موقفك من هذه الانظمة ؟ وما موقفك من الفكر السياسي الذي

ثحمله منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة وما رأيك في شعار الدولة الفلسطينية الديمقراطية ؟
الدكتور حليم بركات يسأل : هل من حق العربي ان يكون ملحدًا ؟ ويطلب الإجابة في الحاح مريب . انني - في البداية - اطرح عليه سؤالًا : هل نحارب الاستعمار الاميريكي والصهيونية ام نحارب الله ؟ ما معنى ان يفتح حليم بركات - العامل في الجامعة الاميريكية - نيرائه « (الان بالذات) » على الدين ، دون ان يمس بكلمة واحدة المؤسسة الدينية الرجعية والانظمة المتاجرة بالدين عميلة الاستعمار والتواطئة معه غالبًا ؟

الدكتور حليم بركات في مقاله السابق ذكره عن الاغتراب والثورة في الحياة العربية يعدد العوامل التي يراها « تساعد على تكيف الانسان العربي ونشجعه على القبول بدلًا من الرفض) » ، وعلى رأس هذه العوامل « الدين والتعلق بحركات شبه ثورية تقبل التراث ونبتق عنه وتحافظ عليه » ولكنه لا يمس بكلمة واحدة انظمة بكاملها من امراء البترول وملوكه تقوم اساسًا على الاتجار بالدين بشعائره وطقوسه ومقدساته . ومن ضمن هذه العوامل التي يذكرها ايضًا « الخوف من الخارج » ، ويشرح فكرته قائلا « ان الصدام مع قوى خارجية يلهينا عن مواجهة القوى الداخلية » . لماذا لا يسمي حليم بركات تلك القوى الخارجية باسمها الحقيقي ؟ لماذا لا يسميها « الصراع الوطني ضد الاستعمار » ؟

انك يا ايها الدكتور - دون ذكاء - نسفر عن موقف نموذجي للانتهازي التقليدي : تجرب ان نجعل معركتنا الاساسية ضد « الدين » وليس ضد الاستعمار والصهيونية ، وضد الانظمة الثورية التي تخوض الان بالسلاح والفكر معركتنا القومية المصرية وليس ضد الانظمة التي تتواطأ مع الاستعمار وتخدم الصهيونية وتحمي المؤسسات السياسية والفكرية الرجعية والمستندة الى اكثر جوانب تراننا ظلامًا والحريصة على ان تجعل تراننا كله سندا لرجحيتها ، حتى في الجانب المستنير منه . انك تفتح نيرانك على الدين وعلى الثورة باسم « التحرر من الماضي ورفض تقديس التراث وعدم التعلق بحركات شبه ثورية » ولكنك لا توجه طلقة واحدة الى الناحية التي يطلق عليها كل الثوار الحقيقيين نيرانهم : الاستعمار والصهيونية والانظمة العميلة . لماذا يا سيد ؟ هل حدث ذلك بالصدفة ام ان مجلس الامناء في جامعتك سبب كافًا لتوضيح الاجابة ؟

ان الدكتور حليم بركات بموقفه هذا يقدم لنا نموذجًا - لا للانتهازي التقليدي فقط - وانما علينا ان نكتشف « النوع » الذي يمثله - انه نوع المثقف الذي ينتمي الى شعب مهوور والذي سحرته قوة قاهرية فسحرتة ايضًا ثقافتهم . انه لا يستطيع ان يكون امريكيًا ولكنه من الناحية الروحية كف عن ان يستطيع ان يكون عربي العقل والروح . لم يستطع ان يميز بين ان يتشرف بثقافات الشعوب الفائزة فيستفيد بها في فهم الانسان والتاريخ وفي تطبيقه منهاجهم العلمية لتطوير ثقافتنا القومية ذاتها واعادة اكتشاف الجانب المستنير منها ، وبين ان يذوب كلية في تلك الثقافات فيتحول الى اداة مفلولة في يد « مجلس امناء » اميرالي حقيقي لتخيط روح المقاومة في شعبه وروح تجديد قوميته وتعصيرها في الوقت نفسه . ولعل هذا هو السبب الذي يجعل امثال حليم بركات يكتبون مثل ما يكتبه حليم بركات نفسه : « شخصيا اعتقد اننا يجب ان نرفض كل ما هو قائم » جميع الحركات التي ظهرت رجعية لم تحاول ان تغير التقاليد والمؤسسات الورثة . تفكر من ضمن الاطر الفكرية القديمة . جميع الحركات والفئات والانجاعات الراهنة تجاوزها الزمن حركة الفدائيين وحدها يجب ان تستمر . انها املنا الوحيد .» (رواية عودة الطائر)

وهو ما يجعله يصوغ العالم الداخلي لشخصياته الفنية من عناصر كلها مستمدة من التراث الثقافي لشعوب اخرى ثم يزعم انه هذا هو

التفتح على ثقافات تلك الشعوب . فرق بين ان تعرف كيف تستخدم الفنان الموروث الثقافي لشعبه في اخصاب شخصياته الفنية وامدادها بابعاد عقلية وروحية ونفسية عميقة وباريخية وشخصية وبين ان تستخدم نفس الموروث الثقافي لشعب اجنبي لاخصاب شخصياتك الفنية أنت . في هذه الحالة اما ان تكون شخصياتك شخصيات لقيطة تعيش على ابواب ملاجئ ثقافات اجنبية واما ان تكون انت نفسك مثقفًا لقيطًا ، لم تعرف انك من نسل شعبك وثقافته وان وظيفتك هي ايقاظ ثقافتك القومية وتوظيفها وتوظيفًا عصريًا يغير مضمونها الموروث للمحافظة على عملية نمو شخصية شعبك القومية وعقليته وروحه ، ثم رحت تنتسب الى ثقافة اخرى لن ينظر اليك اصحابها الا على انك اداة لمؤسسة القهر القومي التي تسيطر على شعوبهم . . ونحاول الاستمرار في السيطرة على شعوبنا ، ونقاومها شعوبنا وشعوبهم سويًا بقيادة ثوريين حقيقيين .

سامي خشبه

القاهرة

تتمة الارهاب الفكري سلاح مفلول

ولكن هذا لا يكسبه بشكل ميكانيكي صفة الوحودية ، ولا يكسبه بوجه خاص الحق في احتكار هذه الصفة وفي احتكار الكلام باسم الفكر الوحوي .

واذا كنا في مقالنا عن « اساطير المثقفين » قد اخترنا ثلاثة نماذج دون غيرهم من المثقفين العرب ، فليس ذلك من قبيل الصدفة ، وليس من قبيل الصدفة ايضًا ان تكون الرابطة التي تجمع بين الكتاب الثلاثة هي الدعوة الى الوحدة العربية .

ذلك ان هذا على وجه التحديد ما يؤلنا .

فما يؤلنا هو ان تقترن الدعوة الى الوحدة العربية بالهلوسات الايديولوجية .

ما يؤلنا هو ان تسقط الدعوة الى الوحدة العربية في الطوبائية من جديد بعد ان دفعت حركة الثورة العربية ثمنًا باهظًا لاهامها السابقة .

ما يؤلنا هو ان يسقط الفكر الوحوي في مرض الطفولة من جديد وهو الذي لم يتحرر الا بعد لاي من امراض المراهقة .

ناهيك عن السديمية والشوفينية والمثالية البورجوازية الصغيرة وسائر اشكال الشطحات النظرية والجمعيات التي بلا طعن .

واذا شئنا ان نستعير لفة الكاتب ، قلنا : مسكين هو الفكر العربي الوحوي اذا كانت مراجعته الوحيدة المعتمدة هي « اسس الاشتراكية العربية » او « الايديولوجية الانقلابية » او « الثوري والاشوري » او « التجربة » !

وبعبارة اصرح ايضًا نقول : ليس ذنب الدكتور نديم البيطار انه قال بضرورة الارتباط بالثورة الناصرية الوحودية ، وانما جريته في نظرنا ان الجسر الفكري الذي قدمه لمثل هذا الارتباط هو « الايديولوجية الانقلابية » بكل اتجاهاتها النخبوية والفاشية .

وليس موضع خلافنا مع الدكتور البيطار قوله بان ثورة ٢٣ يوليو هي القاعدة الاساسية للثورة العربية ، وانما ادعاؤه بان الجماهير - بما في ذلك الجماهير العربية الوحودية - « جاهلة ومحدودة الفكر ... تعبد الشيطان ان لم تجد لها تعبه » .

واذا كان يحلو للاستاذ مطاع صفدي ان يصور نفسه على انه شهيد قضية الوحدة ، فاننا نؤكد له بمورنا ان خلافنا معه ليس على الدعوة الى الوحدة ، وانما على مفهوم الوحدة والطريق اليها ، وكذلك على مفهوم المناضل الوحوي . وما الداعي الى غضبة الكاتب اصلا ما دام الثوري العربي الامثل في رايه هو ذلك الثائر من اجسل « لا شيء ، ولا ضد أي شيء » ، الثائر « بلا قضية » ، الثائر « لانسه ناثر » ؟

وما دامت مسألة الناصرية قد طرحت - بدافع الارهاب الفكري - على بساط البحث ، وما دام الكاتب يشير ، من جانب لا نقول عنه

خفي ، الى أننا لم نهاجمه الا لانه ناصري ، فاننا لا نجد مناصحاً ممن
توضيح الامور التالية :

١ - هناك ناصرية وناصريّة . هناك ناصرية ١٩٥٦ ، وناصريّة
١٩٥٩ ، وناصريّة ١٩٧٠ . وهذا التعدد من خلال الوحدة والاستمرار هو
ميزة للناصريّة لا تقيصة ، لانه دليل على الحيوية وعلى القدرة على
التلاؤم مع تطور الثورة العربية الذي يصنع الناصرية بقدر ما نصنعه .

ومشكلتنا مع بعض المثقفين العرب الذين ينسبون انفسهم الى الناصرية
هي رفضهم الاعتراف بتطور الناصرية هذا ، ونسبتهم بمواقف سياسية
وفكرية تجاوزتها الناصرية نفسها . وجوهر خلافنا مع الكاتب ليس على
ادعائه الانتماء الى الناصرية ، وانما على تخلفه عن ركب الناصرية
بالذات . وبصراحة نقول : ليس ناصريا في نظرنا من وقف عند ناصرية
١٩٥٩ . وبصراحة اكثر نقول : ان استمرار الناصرية كقوة اساسية من
قوى الثورة العربية مرهون باستمرار تطورها ، وادهى العقبات التي
يمكن ان تقف في وجه هذا التطور ، أي في وجه حيوية الناصرية ، هي
تلك النماذج من ادعاء الناصرية الذين يدعون لانفسهم صفة الطليعة
الايدولوجية والذين لا هم لهم على الصعيد الايدولوجي غير ان يعيدوا
ناصريّة ١٩٧٠ الى ما كانت عليه في عام ١٩٥٩ على سبيل المثال .

٢ - هناك تحالف وتحالف مع الناصرية . هناك تحالف ولائي ،
وهناك تحالف نقدي . والتحالف الولائي - ولا سيما من جانب من
يفترضون انفسهم طليعة - لا يخدم في نظرنا الناصرية البتة ، لانه ليس
له من دور غير ان يقدم لها مرآة تبريرية ونقريّة . وبالمقابل فـسان
التحالف النقدي ينظر الى مستقبلها اكثر مما ينظر الى ماضيها ، ويقنع
نصب عينيه امكانيات تطورها اكثر مما يعرض على لجمها وعلى اعادة
ادخالها الى القوالب التي تجاوزتها . وجوهر خلافنا مع الكاتب انه
يريدنا ان نفرض النظر عن اخطائه من منظور التحالف الولائي ، في حين
نرى ان فضح تهويمانه الايدولوجية واجب من منظور التحالف
النقدي .

٣ - ان الموقف وحدوي هو في التحليل الاخير موقف من
الجماهير الوحدوية . وليس وحدويا في نظرنا من يبيع هذه الجماهير

اساطير واوهاما ، حتى ولو تفنى صباح مساء بالوحدة . والاضاليل
الايدولوجية التي تمج بها مؤلفات من شاكلة « الثوري والثوري العربي »
و « أسس الاشتراكية العربية » و « الايدولوجية الانقلابية » لا ندع
مجالا للشك في ان فضية الوحدة بحاجة الى تصفية حسابها مع بعض
انصارها قدر حاجتها الى تصفية حسابها مع خصومها . والانتكاسات
التي منيت بها جماهير الوحدة بدءا من الانفصال الى هزيمة حزيران
تجعل تصفية الحساب تلك ضرورة اولي .

ولهذا على وجه التحديد نقول ان الكاتب كان على حق عندما
لاحظ ان الكتاب الذين اخترناهم كنماذج في مقالنا « اساطير المثقفين »
تجمع بينهم الدعوة الى الوحدة العربية .
نقول انه كان على حق بالرغم من الكسب الرخيص الذي اراده من
وراء ذلك .

فترويج الاساطير والضلالات الايدولوجية على ايدي دعاة الوحدة
العربية ادعى الى الالم من رويجها على ايدي دعاة الانفصال والاقليمية .
وسوق الاضاليل والاساطير من منظور وحدوي اوهى خطرا من
سوقها من منظور انفصالي او اقليمى .

وفي مراحل محددة من النضال في سبيل الوحدة تصبح الحاجة
الى فضح الاصدفاء الكذبة اشد من الحاجة الى التنديد بالاعداء
المعلنين .

وليرد علينا الكاتب بعد هذا كيفما يشاء .

وليهامرس ضدنا ارهابه كيفما يشاء .

فسلاح ارهاب الفكر سلاح مقلوب .

واذا كان الهوى ينفلت من غفاله ، اكثر ما ينفلت ، في النقد .

فلقد حاولنا - على حد تعبير ماركس الذي يكن له الكاتب عدا

جذريا - ان يكون نقدنا لهذا الاخير رأس الهوى .

واراد الاستاذ مطاع صغدي نقده لنا من هوى الراس .

ولكل أسلوبه .

والاسلوب هو الانسان ، كما هو معروف .

جورج طرابيشي

أصول الفكر الماركسي

تأليف اوغست كورنو

ترجمة مجاهد عبد المنعم مجاهد

رحلة من داخل الفكر الماركسي وتأسيس للحركة الماركسية في الفكر الالماني قبل ماركس بدءا من
الفلسفة العقلانية الى الحركة الرومانتية ثم وقفة كبيرة عند هيغل من حيث هو مصدر غنى للفكر الماركسي
ثم وقفة كبيرة أخرى عند اليسار الهيفلي بصفة عامة ولودفيغ فيورباخ بصفة خاصة . . وهنا يهتم المؤلف
بابراز فكرة الاعترا ب عند كل من هيغل ثم موسى هس وفيورباخ ، وهي تلك الفكرة التي اثرت على ماركس
الشاب وبحث في المكونات الفلسفية وتطوره الفكري حتى البيان الشيوعي بعد ان تكون رحلة الاصول
قد استكملت . .

والمؤلف واحد من كبار المفكرين الماديين واستاذ للتاريخ الثقافي بجامعة همبولدت ببرلين . . وهو من
اوائل من اهتموا بمشكلة القرية عند ماركس وركز على مخطوطة ماركس الاقتصادية والفلسفية التي نشرت
في الثلث الثاني من القرن العشرين وعدلت النظر الى كارل ماركس . .

صدر حديثا - عن دار « الاداب »
في طبعة جديدة

الثون ٣٠٠ ق . ل